

سيرة

للقصصيّ الرّبيّ مونا دا أنا اسكّر

بقلم الأستاذ محمد مؤدّ الحفيف

الابتدائية ست وليدة جهدة ، فقد أحسست فيها شيئاً من الصدق ؛ وكانت روحه رقيقة هزيلة وبنت العيني لأول وعلة ذات حسن . وإن الصورة التي مدت بها يدها ، مترددة أو تكاد تتردد ، حين قدمي إليها زوجها ، ثم استردادها نظرتها إلى في سرعة ، قد أوجت إلى أنها ذات دعة وحباء .

وكان الثاني بياداسا مرة ثانية حين غيرت مسكني فوجدتني جاره اللامق ؛ وكان لا يفصل بين الحديقتين إلا سياج من الأغصان الكثيفة المزهرة ، ولم يمض زمن طويل منذ مقدي إلى منزلي الجديد ، حتى اعتدت أن أقضي العشيات معه . وكان بياداسا طيب القلب ، ولكنه كان فيما يبدو لا يحب البرج والمجون . ولست في الواقع حتى اليوم أعرف ما يحب وما لا يحب ، وكان من عادته أن يظل يقرأ الصحف منذ عودته من عمله حتى ساعة الطفل

عرفت (بياداسا) منذ زمن طويل . لقد كنا نذهب إلى مدرسة واحدة ، ولكنني أذكر أنه كان في قرية أعلى ؛ وكان يومئذ يقطن مع عمته ، وكانت عمته جارتنا . وما زلت حتى اليوم أذكر تلك الشجرة العظيمة الممتدة الأغصان ، شجرة النمر الهندى التي كانت تقوم وسط الفناء قوية فينانة ؛ ولقد كنت في الأمسيات ألعب مع لداني تحت هاتيك الشجرة ، وكان بياداسا أحد هؤلاء .

ولقد علمت منذ سنوات أربع أو نحو ذلك ، أن بياداسا أصبح زوجاً ؛ ثم إنى لقينته وزوجته في دكان مدينة كولومبو . ولقد ظلت على وجهه تلك النظرة الساحبة الفاترة التي كانت تتراءى عليه وهو طفل ؛ ولقد أحسست أنها اليوم أكثر ظهوراً ؛ وإن النظرة إلى وجهه لا تنبئ أنه من أولئك الذين صاروا أزواجاً وآباء . ولما لقينى كانت انقسامته لي في جهدة ؛ ومع أن تلك

وأنه وإن لم يكن يحس ميلا إلى الزواج ؛
قد استجاب إلى إغراء والديه فتزوج سوما .
وكانت سوما من أسرة ميسورة الحال من
إقليم الدلال . ولقد أتبع لها قدر كبير من
التربية والثقافة . ولقد أنجبت سوما غلاما
بعد زواجها ، ولكنه مات بفترة وهو في
الثالثة من عمره .

وبعد أن أصبحت لحظة إلى هذا الحديث
عجبت ماذا جعل بياداسا يبحث عن عمل
مثل هذا ؟ ثانيا تابعا للحكومة ؛ ولو أنه كان لي
مثل ماله من نراء ، مارضيت أن أخدم بحث
إمرة سيد ؛ وإني أشعر الآن أن عدم قدرته
على أن يظهر شخصيته في أية صورة أخرى
هو الذي جعله يبحث عن مثل هذه الوظيفة
وحل الفصل الذي أزهزت فيه
الأشجار كل الإزهار ؛ وازدادت الأملسي
بهجة ، وبانت الشجيرات في حديقتهم وفي
حديقتي محملة بالأزهار ؛ وأحسست يومئذ
أني لبي صحبة سوما في ترهاتها أكثر
ميلا مني إلى استماع صوت بياداسا ؛
وأحسست كذلك أن سوما تحب أن تقضي
الأمسي معي .

وكنت بدأت أشعر منذ وقت طويل
أنها لم تكن حسناء بحسب ، وإنما كان حولها
نوع من السحر خاص بها . إنك لو شخصتها
جئة فلا أظن أنك واحد فيها شيئا فائق

ولقد كنت أعجب ماذا عسى أن يكون
في جريدة من مثل هذا الإمتاع ! ومهما
يكن في الأمسيات من جمال وإغراء ، فلست
أذكر أمسية خرج فيها من داره . ولقد كنت
أدعوه في مثل هانيك الأملسي إلى قليل من
المشي ، ولكنه كان يرغب أبدا عن ذلك
ولما توثقت المعرفة بيني وبين بياداسا
وزواجه ، أخذت ألاحظ أن سوما لم تكن
كما ظننت حين رأيتهما أول مرة ذات حياء .
ولقد وجدت من العسير أن أوفق بين
ما أراه منها وبين ما وقع في نفسي من أثر أول
مرة حين رأيتهما .

كانت على خلاف بياداسا قد تعودت
أن تخرج المنزل أكثر الأمسيات . ولقد
علمت بعد أيام فلانل أنها كانت أحيانا ترجع
إلى بيتها متأخرة . ثم إنني رأيتهما مرة أو
مرتين حين كنت أقرأ كتابا إلى جوار
نافذتي عائدة مع بعض صاحبات لها أظهن
من جاراتها . ولقد سمعت كلامهن
وضحكتهن ، وما صادفتني مرة إلا لوحث
لي بيدها مبتسمة بالسامة سادقة .

وبعد ثلاثة أشهر منذ أن تطورت
سداقتنا إلى درجة من الألفة ، قص على
بياداسا كيف قضى حياته منذ أن ترك
المدرسة . وجاء في معرض قصته أنه استأجر
في عمل بكونومبو بمجرد أن غادر المدرسة ،

هو الحق فإني لا أكاذ أذكر أني أحببت امرأة . لقد أنجبت نفسي في المدرسة إلى فتاة كانت معي في حجرة الدراسة ، ولكنني أشعر الآن أن ذلك لم يكن مثل ما يكون من حب بين الرجال والنساء .

ولما كنا في زمن الزهر ، وكانت نحامل الورد في حديقةهم تنفتح كأعناقها ، فقد اعتدت كل صباح وأنا إلى جوار نافذتي أننتظر حتى يحين موعد ذهابي إلى عمل ، أن أرى سوما بين نحائل الزهر تقطف تلك الورد : وكانت ترسل إلي كل صباح باقة من الزهر : وكانت إذا وجدني لا تزال في نافذتي تسمى إلى بشي من الزهور التي جمعها

وكنت ذات مساء أقرأ كتابا في حجرتي ، ولم يكن بي ميل إلى مبارحة البيت لأنني عدت متأخرا من علي : وما عي إلا لحظة حتى سمعت شخصا يطرق الباب طرعا خفيفا ، ولما فتحت ألفت سوما وانفة وحدها !

وسألني قائلة « ألا تخرج الليلة لتمشي قليلا يا نبال لا إني استسعر الوحيدة اليوم جدا » وأجبتها « لقد كنت اعتزمت البقاء ولكن إذا كنت تريدني فسأني معك » ثم أغلقت من خلفي باب حجرتي ومشينا مسافة قصيرة في صمت : وكان

الجمال وإن عيبتها كانتا من السعة بحيث لا نعدان مناسبتين ، ولكنني وجدت فيهما شيئا شديدا الجاذبية : وكانتا تبدوان كما لو أن الدموع تريد أن تتساقط منهما في أية لحظة . وإني لأحس أن النساء حتى أكثرهن حملا بلحن أكثر حسنا حين تفر الدموع أعينهن . ولم يكن أنفها كذلك أشم أو سويا : ولم تكن تفتاعها رقيقةتين ولا حمرانين كزهرة اللوتس : وكانت أصابعها الدقيقة الأنامل تبدو رقيقة لطيفة ، ولكنها كانت من الدقة بحيث لا يمكن أن تعد حسنة التكوين أو جميلة . وكان حديثها كحديث طفلة بريئة ، وكان يساب طبيعيا لا تكلف فيه حتى لقد كنت أنسى ما يتصرم من الوقت حين كنت أجاذبها أطراف الحديث : ولم تتناول في حديثها ما يتناول أكثر النسوة عادة من مسائل ، وإنما كان يدور حديثها حول أمور ذات صبغة فلسفية أو أدبية : وكثيرا ما أثر في نفسي أنها ذات خبرة بأمور لا يهتم بها إلا ذوو العقول الرزينة على أنني أذكر أنها سألتني ذات مرة عما إذا كنت أحببت امرأة قط : ولقد ربكني سؤاها لحظة ، وذلك لأنني رأيت أنه مما لا يليق بسيدة صغيرة مثلها أن تسأل سؤالا كهذا : ثم أجبتها في حالة تكاد تكون عصبية « كلا » ، وإني أعتقد أن ما ذكرته

ولما اقتربنا من منزلها شممت رائحة
أزهار الحديقة ؛ وحطت سوما إلى الفناء قائلة
« أدخل يا نبال » وراعتني دعوتها إذ
وجدتها غير لائقة ، وأحسست كما لو كنت
أريد أن أطلق عدوا ولكني لم أجد لدى
القوة لأفعل ، فتمعتها .

وبعد أشعة القمر من خلال الأغصان
فأعرفتني وأغرقت سوما ؛ وكنا وحيدتين في
الشرفة المكشوفة ؛ وكان باب غرفة بياداسا
مغلقا ؛ وجلست سوما صامتة ساكنة
كأنها من الحجر ؛ واستطعت أن أرى
وجها شعثه نور القمر . وكان ما يرسم من
معان على عيناها عجيبا جنيا يكاد يخيفني ؛
وجلست سامتا على كرسي في طرف الشرفة
ولم أعد أقوى على النظر إلى عينيها . وكان
يتري قلبي بين المفاعلات متصارعة . ثم إن
صعفا . أتيت كنهه قد قضى على ما في
من قوة .

ودافقت في بطن نحو مقعدى ، ورأيتها
وهي تترقب سني كما لو كنت في حلم ، وجلست
على متكأ مقعدى ؛ وكنت أحس تنفسها ؛
واستجذمت كل ما وسمني من بقايا شجاعتي
ونظرت نظرة إلى وجهها ؛ ورأيت عيناها
قد توفد أحمرارا ، وكانت في عينيها نظرة
غريبة واختلجت شفتاها ؛ ودق قلبي دقات
سريرة ؛ ولم أحس من التواضع إلا أن

ذلك قبيل العروب ؛ وكانت تهج غير بعيد من
منزلنا بقعة حضراء أشبه بالحديقة لما كان
ينمو فيها من وحشى الشجر ؛ ورأينا القمر
بارغا يحكب سعاعته الفائرة الفضية على
رؤوس الشجر ؛ وأحدثت نسمة خفيفة
باردة خفيفا بين الأغصان ؛ وأحسست أن
سوما تقبض يديها على أسابي ، ورأيت
أنه يجب على أن أجذب يدي من يدها ،
ولكني لم أجد لدى من الإرادة
ما يعينني على ذلك . ولقد سرى في بدني
شعور عجيب بالشدة نتيجة لهذه النسمة ،
ومست إلى حجابي دون أن أتكلم ،
واستطعت أن أرى نور القمر الهادئ على
وجيها وعلى رداها الأبيض . ولقد أضاء
وجيها في نور القمر ، وأبصرت خصلات
من شعرها تتألق وتراقص بفعل السيم . ثم
قطعت الصمت بعد أن مشينا ساعة طويلة
بقولها :

— ألا تعود أدراجنا ؟ فأومأت برأسي
موافقا لها

ولما استندنا راجعين كنت أرى
ما يواجهنا من ظلال طويلة ممتدة ، وكان
بالي فارغا ثم تراخ . ولم أكن أسمع إلا
نفسها وحفيف نوبها كلما حطت . ومن
النسيم البارد سفحة وجهي ؛ وازدادت
سوما اقترابا مني ؛ وأحسست خيفة في
نفسى من لمس جسمها النحيل اللطيف

من زوايا عتلى . إن ما بعته ملس خديها
وبيديها من نشوة في نفسى قد أتاح لى تجربة
لم أدقها من قبل .

وخيل إلى أن وجهها لا يزال يحدق فى
وجهى ، وأن ما ارتسم على عيائها مما
لا يمكن اكتناه سره لا يزال ماثلا فى
عينها . لقد ابتعثنا شكا فى نفسى لا يزال
بلاؤمى : ذلك أنى أخذت أنسال : هل
تسلك هذا تسللك كذلك مع غيرى ؟ لقد
رأيتها واقفة لدى عتبة الباب نحملق فى غير
معنى . ولم أستطع حتى أن أخيل ماذا كانت
تعبر عنه ملامحها فى تلك اللحظة .

واسدعت فى الصباح على حبيب
خادمى ، ولست أذكر أنها أبقتنى قفا على
مثل هذه الصورة من قبل

« سيدى لقد ماتت السيدة جارتنا ليلة
أمس » .

وأدعنى الخبر فوثبت من سربرى سائلا
فى لهفة « من ؟ »

« جارتنا السيدة يا سيدى »

« ومنى كان ذلك ؟ »

« لست أدرى فى أى وقت : لقد

وجدنا السيد ميتة هذا الصباح »

ولم أسأل أكثر من هذا إذ لم أجد لدى
شجاعة لذلك . لقد يهرنى الخوف والحزن
وانتهيت إلى أنها قتلت نفسها نتيجة للفتا

أنهض فأعدو بعيدا عنها ؛ ولكنى قبل
أن أقبل ذلك أحسست بيديها تشتبكان
خلف عنق . ثم إني أقبلت بوجهها على
حتى دأمت خلسة من شعرها جبهتى
وامتلأت عيناى خنأة بالدمع ، ولم يكن
فى وسعى أن أدفع ذلك ، ثم إني عطيت
وحتى براحتى .

ولست أدري لماذا جاء مسلكى وقتئذ
على هذه الصورة : ومايسلك أحد غيرى هذا
المسلك فيما أظن . ربما كان مرد ذلك إلى مزيج
من الفرح العظيم والأسف . ولقد يكون مرد
إلى أن ذلك كان أول موقف وقعت لى فيه
تجربة ما مع امرأة ..

لقد ابتعدت فى بلاء عنى ووقفت دون
أن تنطق بكلمة عند مدخل الشرفة ؛ ولبت
مستمرقة فى تفكير عميق ، وقد استندت
إلى الباب واستندت ذقنها براحتها . وظلت
على تلك الحال لحظة ، ثم رأيتها تدخل الحجره
وتجذب الباب من خلفها جذبة قوية .

وعادرت أنا منزلها وآويت مسرعا إلى
منزلى . ولما ذهبت إلى مضجعى أحسست
كأن عتلى قد اختلط . لقد ملأنى مسلكتها
عجبا . وكان أعجب منه مسلكى حيالها ؛
وحين مسكرت فى مسلكى أحسست أن
الحجرة تبهت وجسى ؛ ولكنى لست أنكر
أن ثمة سمورا من القبطه كان يكمن فى زاوية

ليلة أمس ؛ وأظن أن بياداسا رأنا وأنه
سألنا عن ذلك ؛ وكان ذلك ماجملي أخشى
لقاء زوجها .
وبعد لحظة جاني بياداسا ليراني ؛ وإن
مجرد مرآه قد قدف في نفسي الرعب ؛
وسكرت في أنه سوف يلاحظ عيني تفقدان
بريقهما ووجني سبغهما الحمرة ، على أنني
تجرات مخدنة واستفهمته
قال بياداسا إنه حينما ذهب إلى
حجرتها في الصباح وجدها ميتة في سريرها
وإنه ليس يدري سبب موتها . لقد أوت
إلى فراشها متأخرة عن موعدها كل ليلة ؛
ولقد سطرت كتابا أعطته لخدم ليقتي به
في البريد لساعته ، وكان ذلك كل ما استطاع
بياداسا أن يحمله من نبال حول موتها ...
وألقي إلى البريد كتابا في اليوم التالي
ممنحته فإذا هو من سوما وإذا بها تقول ،
« يجب أن أوضح لك بادي الأمر أني أكتب
هذا بدافع الشفقة عليك ، فإني على يقين
من أنك حين تسمع نبأ موتي سوف تعود بالتبعة
على نفسك . ولكن يجب ألا تعتقد ذلك
فلقد قتلت نفسي لأنني لم أعد أجدي الحياة
فائدة . وإنك لو عشت ماضي فلست توافقني
على ما فعلت
قد تكون عشت أني كنت امرأة فاضلة ؛
لقد تزوجت منذ سنوات ست ، وإنني أشعر

أن الواجب يقتضي أن آين لك مبلغ
ما اتفق زوجي من فضل كرجل ، وإنه
ليصعب أن يوجد زوج له مثل صبره
ورأفته . ولكنني أشك في أنه أحبني .
كذلك أرتاب في أن من لهم مثل
طبيعته من الرجال يقدرون على أن يدركوا
حقيقة ما يكون في قلب المرأة من مشاعر
وأظنك كذلك أدركت هذا مما عرفت من
سلوكه . وعلى الرغم من ذلك عشنا في وثام ؛
ولكنني لن أغفل ذكر أمر واحد ؛ ذلك أنني
إذا تدبرت في ماضي لا أستطيع أن أقول
إني عشت عيشة سعيدة . إنني أدرك أني لم
أحرم قط شيئا ؛ ومع ذلك فإني لم أدق
ما كنت أنتظره من الحياة الزوجية من
سعادة كاملة . وبعد أن انقضى عام ولد لنا
غلام أحبته بكل ما في نفسي ؛ وشعرت
أن هذا الحب قد عوض ما كنت أحس
في عمق أنه فاني من حياتي . لقد كان
الطفل محور حياتي وبه شعرت بنا للحياة
من معنى ومن حقيقة ؛ ولكنه مات بعد
ذلك ثلاثة أعوام . وكان قتله مما لا
يستطاع حمله . وليت شعري هل أحس
بياداسا مثل ما أحسست لفقده ؟ لقد بكيت
مصاني بضعة أشهر ؛ وإن ما أمدني به طفلي
من معنى لحياتي ومن حقيقة لها قد ذهب
بدهابه ؛ وبات عقلي مشردا كما لو أنه انزع

ردك غير المنتظر قد أحدث في عقلي تغيراً
 تاماً . إن مسلكك حيالاً قد بين لي مبلغ
 خطائي . وبنى لأبين ذلك الآن فقط ، وما
 أظن إلا أن كنت عمياء طيلة هاتيك الأيام
 إلى سمر كالألو كنت أعترف بذلك
 كله لبياداسا ، وكألو كنت أفتح صحيفة
 جديدة في حياتي ؛ ولكن كيف أنظر منه
 أن يفهم وهو الذي لا يدري شيئاً حول
 هذه الأمور ؟ حتى لو أنه غفر لي خطيئتي
 أناني رزاح إلى هذا ؟ ولكن كان
 مستمداً أن يتقبلني الآن بجميع أوزاري ،
 فلقد كان يجب عليه أن يتهمني حين كنت
 خائنة له . ألا ترى ذلك معي ؟ ولئن قدر
 أن يسمر الآن بالشفقة علي ، فلقد كان عليه
 أن يمتص علي الأقل من مسلكي حينذاك
 وإذا كان بحيث لم يهتز قلبه وقتئذ ، أراه
 يتحرك الآن ؟ إن الموت يبدو لي الحل
 الوحيد . المخرج الوحيد مما أنا فيه
 وإلى أمل الآن أن تكون قد
 اقتنعت بذلك برى »

محمود الخفيف

مما يسكه إلى مرفأه ؛ وازداد في نفسي
 ما كنت أشعر به من خيبة قبل مولد الطفل .
 وأحسنت كذلك أن أفقد في مرعة
 إحساسي بالخوف والعار وذلك بسبب هذا
 الحزن الذي يغتصلي ؛ وبدلاً من أن شعور
 القداسة نحو الحياة ونحو الزواج قد ذهب
 بدداً

وأخذ يتقاذفني الشيار ، وأخذت أبحث
 عن اللذة أينما وجدت بها . ولم تعد تضيقني
 أفكار ولائي نحو بياداسا ، وإلى أذكر ذلك
 الآن فقط في غضب وفي شعور بالعار .
 صارت الشهوة عماد حياتي ؛ وإذا ذاك لقبتيك
 وعرفتك

ولست أظن أن بياداسا قد فطن إلى
 شيء مما طرأ من هذه التغيرات على حياتي ؛
 إنه لم يفرق بين ما كنت أظهره له وأما زوجة
 أمينة وبين ما كان مني حين أصبحت له
 خائنة . ولو أنه فطن إلى ذلك ، أجل لو أنه
 فطن إلى حقيقة أمرى لأمكن تجنب
 هذه الخائنة ... هذه المأساة !

لقد اتخذتك مدافعاً لي بدافع الرغبة
 أن أحقق معك ما شرع إليهِ نفسي ، ولكن